مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بتيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 08 / العـدد: 02 (ديسمبر 2024)، ص.ص.93-101

الأنساق الفلسفية وعلاقتها بالبلاغة
بحث في مفهوم البلاغة عند حازم القرطاجني
The philosophical coherence and its relation to rhetoric for HazemKartanji

إبراهيم بوغفالة
ibrahimboughoufala@yahoo.com
جامعة ابن خلدون – تيارت –
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/10/18 تاريخ القبول: 2024/04/02 تاريخ النشر: 2024/12/02

ملخص:

ساهمت فلسفة حازم القرطاجني في الكشف عن رؤيا جديدة للدرس البلاغي القديم، فالبلاغة ليست مقصورة على المعياري والنمطي الجزئي، وإنما البلاغة معرفة عامة شاملة منفتحة على كل فلسفي ثقافي اجتماعي، بل البلاغة الحازمية تركيب كلي يجمع أيديولوجيات كثيرة حتى ترى الإمتاعي يمازج الإقناعي، وما هو فلسفي مذاب فيما هو جمالي ذوقي؛ إذْ يعتبر النص ميدانا للتحليل والكشف عن المعاني وعلاقتها بالأفراد وكيفية حدوثها في الذهن .

وحازم بهذه التنظيرات البلاغية الجديدة تجاوز المألوف السائد الداعي إلى فهم البلاغة فهما مقننا مقعّدا، وفلسفته اخترقت الحدود العربية القديمة وحتى الحدود الأرسطية القائمة على المعيارية، ليؤسس فكرا بلاغيا جديدا يجمع بين الإمتاعية والإقناعية .

كلمات مفتاحية: البلاغة؛ الفلسفة؛ النص؛ الأرسطية؛ العربية؛ الحجاج.

Abstract:

The philosophy of HazemKartanji has contributed to unveil new vision of the old rhetoric lessons. Basically the rhetoric is not only meant for the criterion or the partial typical but it is obviously for a wide open knowledge for every cultural and social philosopher. The resolute rhetoric is more like an overall-installation that gathers many ideologies until you see everything philosophical melted in what it is described as aesthetic. Hence, the text is considered as a field of analysis and unveiling the meanings and its relations with individuals and the way it happens in mind.

And hereby, Hazem with all of these visions, he over-run the standards and his philosophy has penetrated both the old and the Aristotle limits which are based on the criterion to establish new rhetoric thought which assembles the two opposites.

***Keywords**:rhetoric ; philosophy; text ; Aristotle; Arabic; Pilgrims.*

1. مقدمة :

غلب على البلاغة العربية كثرة النسخ والتكرار الذي جعلها مستهلكة لا جِدَّة بها، فمنذ العصر العباسي والبلاغة العربية رهينة قواعد **مفتاح السكاكي**(ت:626هـ) وتلخيصاته وشروحاته ليساير الوقائع والأحداث، فرجع بالبلاغة القهقرى، وما أُلِف في البلاغة خارجا عن مألوف المفتاح لم ينل حظّ الدراسة الكاشفة عن مشروعية هذا الخروج، كما حدث مع كتاب **منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني**(ت:684هـ) الذي أشرقت صفحاته على بلاغة جديدة أعادت للبلاغة العربية ماءها، ورتبت بعض المغالط التي كررها الدرس البلاغي عبر الأزمنة التي لحقت **المفتاح**.

والدرس البلاغي نفسه كان منقسما إلى مدرسة عربية خالصة لا تؤمن إلا بالملكة والطبع العربي الأصيل، كان **الجاحظ**(ت:255هـ) الداعي إليها، وتبعه **ابن الأثير**(ت:630هـ) ، وهي ما يعرف عند البلاغيين بمدرسة البيان، ومدرسة بلاغية مقننة منطقية معيارية تزاوج بين الفكر العربي والفكر اليوناني، انتهت معالمها وقواعدها إلى السكاكي ومن جاء بعده من الشّرّاح والملخِّصين، وظلت البلاغة رهينة قيود السجن الثلاثي (**البديع والبيان والمعاني**) لا تحيد عنها، حتى ظهر كتاب المنهاج لحازم، وهذا الكتاب رؤيا جديدة كاشفة عن مشروع كبير وجهد وافر، تتضمن قراءة لمفهوم البلاغة كلية، وهو كتاب شامل للعربية وغيرها من البلاغات، لأن صاحب المنهاج أخرج مفهوم البلاغة من النظرة الجزئية القاصرة إلى النظرة الكلية العامة، حيث فرّق فيها بين بلاغة المنثور وبلاغة المنظوم، فأسس تداولية عربية ملقحة بالفكر الأرسطي، وكان حازم بارعا في استثمار الطرح الأرسطي لمفهوم البلاغة، فجلُّ مقولاته مبنية على أسس فلسفية، لكنها عربية في جوهرها شاملة عامة في ميادين العلم والمعرف، بل تجاوز معاصريه في فهم البلاغة، وهو بذلك يتقاطع مع النظرية الحجاجية للبلاغة الجديدة، وهذا المقال يعالج منهجه في **فلسفة البلاغة**، وقبل عرض محتواه سأعرج على مدرسة الجاحظ البيانية، ومدرسة السكاكي المنطقية المعيارية، حتى يتبين للقارئ منهج حازم في تصويره لمفهوم البلاغة من خلال مسارها التاريخي .

فما هي أسس هذه المدارس البلاغية؟، وما الجديد الذي جاء به حاز القرطاجني؟وهل تجاوز القرطاجني الطرح القديم للبلاغة العربية؟

2 . جدل الهوية البلاغية بين بيان الجاحظ ومعيارية السكاكي:

1 . 2 . مدرسة الجاحظ البيانية (البلاغة ملكة عربية وليست قوانين منطقية):

ارتبطت البلاغة العربية من حيث النشأة بالجاحظ الذي أبان من خلال كتابه **البيان والتبيين** أن اللسان العربي لسان عبارة لا لسان أفكار فلسفية مجردة، ومعاني اللغة العربية معان جمالية ذوقية، ولا سبيل لفهم الخطاب العربي إلا من زاوية البيان والبديع، فالمنهج العربي الخالص هو اتباع قواعد البيان العربي لا المنطق الأرسطي الذي جرد الكلام من الجمالية، ثم ظهرت كتب الجاحظ إماما في هذكثيرة في البلاغة العربية منها كتاب **الشعر والشعراء** لابن قتيبة(ت:276هـ)، **والصناعتين** لأبي هلال العسكري(ت:395هـ)، **والمثل السائر** لابن الأثير، **والعمدة** لابن رشيق(ت:463هـ)، منهم من يرفض المعيارية والمنطق الذي أثر في بعض البلاغيين العرب، ومنهم من يخالف مذهب الجاحظ، وكان السكاكي آخر من جمع قواعد البلاغة العربية، وقسمها التقسيم الثلاثي معان وبيان وبديع على طرائق اليونانين، ولأن هذا التقسيم فلسفي في أصله يرجع إلى الاعتزال الذي كان عليه السكاكي، والاعتزال مذهب عقلي يلتقي في كثير من الجوانب الفلسفية مع الفكر اليوناني.

وكتاب مفتاح العلوم كتابُ اعتزالٍ قبل أن يكون كتابا يبحث في فنون البلاغة، فالمعتزلة جاهدوا جهادا كبيرا في ترسيخ فكرة **المعجزة**، ولا سبيل في ترسيخ هذه الفكرة إلا بالعقل الذي يزيد في توسيع الأفكار والمفاهيم، من هذا

الباب ولج الفكر الفلسفي اليوناني إلى البلاغة العربية وتلاقحت علوم العرب بعلوم العجم، وصُبغت بصبغة المنطق والفلسفة .

ومدرسة السكاكي في البلاغة مدرسة عقلية بدرجة كبيرة تهتم بالمعاني وتنصر الفلسفة على الطبع البلاغي الجاحظي، هذا الذي حدث مع الذين أيدوا المفتاح : كالخطيب في تلخيصه، والتفتازاني في ملخصه، ولم يسلم حتى النحو من السكاكية، إذ انطلى بقواعد المنطق الأرسطي، كما هو في تأليفات ابن هشام وابن مالك وابن مضاء ومن تبعهم في تقنين اللسان العربي، فالنحو نال وافر الحظ من العلوم العقلية هو كذلك.

وإذا تأملت مذهب كل مدرسة وجدت الفرق جليا واضحا؛ فمدرسة الجاحظ تعتمد على فطرة اللسان العربية وملكة الذوق البياني، أما مدرسة السكاكي فأعجمية في أغلب مبادئها، تحاول فهم البلاغة بالعقل كونها تفتقر إلى الذوق العربي السليم، وأغلب أنصارها أعاجم عسر عليهم فهم المعاني بالملكة اللسانية العربية، فطلبوها بالعقل الذي عرفهم بالبلاغة؛ لكن هذا التعريف لا ذوق فيه، تعريف جاف من ماء البيان، فأصبحت فلسفة البلاغة تقوم مقام البلاغة، تبحث في الأبواب التي قننتها لنفسها (باب المعاني والبيان والبديع)، وراحت تُجزّئ كل مجزإ.

والجاحظ فُطِر على السَّنن العربي فأتى بصورِ البلاغة الخالصة، فصورها تصويرا أقرب للفهم العربي منها إلى الفهم الفلسفي اليوناني، وقد عرض لهذا المفهوم العسكري لما قال: " إن أنواع البيان والبلاغة مبثوثة في تضاعيفه منتشرة لا توجد إلا للمتأمل"**1**، الذي يبحث في أصول البيان عند الجاحظ وأضرابه.

وفكر الجاحظ كان فكرا فريدا يجمع بين مذهب العرب في فهم البلاغة، وإفهام الأعجميين كذلك، ويظهر ذلك واضحا في نقده **الشعوبية** التي باتت تعادي وتقلل من شان العرب، فلكل قوم علامات وإشارات وعادات يعرفون بها، تدل على طبائعهم وثقافاتهم، وما البيان العربي إلا ضرب من ضروب لغتهم التي يعبرون بها عن أغراضهم وثقافاتهم، فلا يمكن فهم البلاغة إلا من هذه الزاوية التي تدل القارئ إلى التسليم بمذهب الجاحظ؛ كونه انطلق من الفطرة التي فطر عليها المجتمع العربي حسب مسلماته التي يحتكم إليها.

فالشعوبية عنده حاجز يحول دون فهم البلاغة العربية؛ حيث بدأ الجزء الثاني من كتاب البيان التبيين بتحديد خطر هذا الوافد الجديد إلى البيئة العربية يقول: " أردنا – أبقاك الله – أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب.." **2**، تقول لِمَ يردُّ على الشعوبية وهو في مقام التعريف بالبلاغة والبيان؟ نقول لك : إن الجاحظ لا يُعرِّف الفنون إلا في سياقاتها الاجتماعية، وفهم البلاغة العربية لا يكون إلا من جمة تحرير العقول من رواسب الأفكار التي تؤدي إلى المغالط الفكرية، فلم يترك الجاحظ حجة في الرد عليهم إلا ساقها كما كان ذلك في سياق العصا التي استطرد في أوصافها ليمكن لدور الخطيب البليغ في الاعتماد عليها، يقول : " ... انظر – أبقاك الله – في كم فن فيه ذكر العصا من أبواب المنافع والمرافق، وفي وجه ضرب الشعراء وضرب المثل ... " ،**3** للبلغاء؛ إذ يجعلونها عمادا وأنسا في الخطابة، فهي لسان أخر للخطيب، وهي التي تغذي وتروي عزيمة البليغ.

ومذهب الجاحظ من أوسع المذاهب البلاغية؛ إذ جعل الكلام في هذا الباب خاصا بثقافات وعادات كل أمة، فمن عادات العرب وبلغائها اعتماد العصا، ولكل أمة في ذلك زيٌّ، وعموم مذهبه قائم على خمس منازل هي: الإشارة والعقد والخط والحال والنصبة، وهو مذهب البيان العربي الخالص.

2 .2 البلاغة من الطبع إلى المعيارية السكاكية:

أما مدرسة السكاكي فقامت على الفكر الاعتزالي الذي يؤمن بمنْطَقةِ البلاغة، فعارض الجاحظ و ابن الأثير وأدخل على البلاغة العربية قوانين المنطق الأرسطي لأن " التصنيف عند العلماء المسلمين قد تأثر تأثرا واضحا في بادئ الأمر بفلسفة اليونان "**4**، وما **مفتاح العلوم** إلا شهادة عينية تدل على معيارية البلاغة عند السكاكي" فقد

تحولت البلاغة إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم، فهي قوانين وقواعد تخلو من كل ما يهيج النفس، إذا سلط عليه المنطق بكل أصوله، ومفاهيمه ... في لفظها وأسلوبها الذي لا يحوي أي جمال، والسكاكي بصدد وضع قواعد وقوانين، وهي ...تشكل في قوالب جافة أشد ما يكون الجفاف" **5** ، فأثرت هذه الأنساق الفلسفية في كثير من علماء البلاغة، وراحوا يتبعون كل مقنن ومقعد قصدوا ذلك أم لم يقصدوا، فقد دبَّ إليهم المنطق من حيث لم يشعروا به، فتبع السكاكي جيلا من علماء البلاغة والنحو في فلسفة البلاغة، فمنهم من نهج نهجه وأعاد قواعده، ومنهم من اعتمد عليه في فكرة الاتباع، وخالفوه في طريقة استثمار الأنساق الفلسفية كوسيلة لإدخال المنطق إلى الطبع العربي، كما هي عند حازم القرطاجني الذي برع في كيفية التجديد البلاغي بطريقة غير مألوفة عند أهل البلاغة، فما هي المفاهيم البلاغة التي أسس بها حازم البلاغة الجديدة؟ وأين يتجلى هذا التجديد؟

3 . فلسفة البلاغة عند حازم القرطاجني (ت:684هـ):

إذا كانت البلاغة عند الجاحظ هي بيان عربي خالص، لا يعرفها إلا من أدرك أسرار الملكة العربية، أو كانت عند السكاكي أبوابا ثلاثة تقاس بالمعيار الأرسطي، فإن البلاغة الحازمية طرح جديد في ساحة النقد والبلاغة القديمة، فهي امتداد لهما وتجديد في الوقت نفسه في المفهوم العميق للبلاغة، فحازم القرطاجني يرى أن البلاغة أوسع وأشمل، فهي الرؤيا الثقافية والاجتماعية التي تتكشّف بها ماهية الأدب، والطبع الذي يملك القدرة على فهم اللسان العربي فهما شموليا كما هو الحال عند البلاغيين المعاصرين الذين يربطون البلاغة بعلم اللسان والعلوم المنطقية، ونظرة حازم تتفق مع المناهج والنظرية النقدية الحديثة؛ فهي كذلك تربط بين العلوم والثقافات والسياقات الوظيفية لها؛ لأن البلاغة لا تفهم إلا في بيئات حافظت على اللسان العربي من العجمة، يقول عن فساد الشعر العربي: " وإنما هان الشعر على الناس، هذا الهوان لعجمة في ألسنتهم واختلاف طبائعهم فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة، فصرفوا النقص إلى الصناعة، والنقص في الحقيقة راجع إليهم وموجود فيهم " **6**

4. مظاهر الفلسفة اليونانية في مِنهاج حازم القرطاجني :

تجلي الفكر الأرسطي في فكر حازم القارطاجني بادٍ بوضوح في مؤلفه **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، الذي نهج فيه نهجا فلسفيا صرفا:" فبالرغم من أن القرطاجني غالبا ما يكون رجوعه وإحالته على الآراء اليونيانية بالوساطة عن طريق الفلاسفة المسلمين، إلا أن السمة البارزة التي تميز بها كتاب المنهاج إحضاره القوي لآراء أرسطو ونظرياته في الشعر والخطابة، وذلك ما يدعو إلى القول بالأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين" **7**،فحازم كان يعتمد على المرجعية العربية والغربية، فلم يكن بمعزل عن الآخر الغربي، وكان سببا في تمازج الثقافات، بل عده النقاد من أكثر البلاغيين استحضارا للعلوم الغربية، فأسس نظرية بلاغية جديدة في الوسط العربي.

وحازم القرطاجني لم يظهر فلسفة أرسطو في آرائه النقدية وتقسيماته البلاغية ظهورا يدل على تكراره للمذهب السكاكي، وإنما راح يستثمر الأفكار والآراء اليونانية وعلاقتها بالمعاني يقول : " إن المعاني هي الصورة الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ لمن تهيأ له بسمعها من المتلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيئة الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني فيكون لها إذا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها " **8** ، وهذا المذهب يُعرف عنده بمذهب **التخييل** وكيفية حصول المعاني واتسامها على الأذهان، وتقسيمه بهذه الطريقة يدل على استخدامه المنطق لتفصيل كيفية حدوث الصورة وكيفية إدراكها، والناس في ذلك على ثلاثة أضرب، ضرب يجيد المعاني كلها حتى النادرة منها، وبعضهم يجيد بعض المعاني ولا يجيد النادرة، وبعضهم لا يجيد إلا المعاني القليلة المتداولة، ولا تحصل المعاني النادرة إلا لمن حسن ظرفه وتهذّب طبعه**9**

1 . 4 . مظهر التخييل :

والتخييل من المظاهر البلاغية والنقدية التي تدل على تعالق الفلسفة بالبلاغة، فلا سبيل إلى فك هذه من تلك، فلا البلاغة وحدها بطبعها كفيلة بتوسيع المعاني وطريقة حصولها في أذهان الناس، ولا الفلسفة تستطيع إمالة الناس وترغيبهم في تذوّق اللغة، وإنما توحدهما واجتماعهما هو الذي يوسع الأفق البلاغي ليشمل مناطق التماس بين البلاغة العربية والبلاغات الأجنبية، ولا يكون هذا إلا بعلوم المنطق والفلسفة وتشغيل العقل والقلب معا .

ومن المسائل التي طرحها حازم في كتابه – يريد بذلك تقريب مفهوم البلاغة للجمهور – اهتمامه بأطراف التواصل (النص والرسالة والمتلقي)، لأن البلاغة تهتم بجميع الأطرف التي بها يحصل التواصل، وهي إشارة منه إلى كيفية حدوث العملية الإبداعية، " فإذا قارنا بين هذا الكلام الذي أتى به جاكبسون ورواد التواصل الأدبي، وما أتى به حازم لن تجد فرقا شاسعا " **10** فالتداولية ونظرية التواصل ونظرية التلقي تثري موضوع التأثر والتأثير بين القارئ والمبدع وتفتح مجالات الأنساق التي تكوّن النص، وهذا نفسه كان مطويا في كتاب حازم في باب سماه " معلم دال على طرق العلم بما تقوم به صناعة الشعر من التخييل، وبما تقوم به صناعة الخطابة من الإقناع والفرق بين الصناعتين، وهذا المعلم مقدم على التخييل والمحاكاة وأهمية التواصل، بين الباث والمتلقي، سواء كان الشعر هو النص أو الخطابة، لأن المتلقي شريك حقيقي في عملية التلقي**11** ، تحصل له اللذة والمتعة بالتخييل، وقد يغير المتلقي مسار التخييل فيغير نظام التركيب يزيد ويحذف، وهذا الذي حصل لحسان بن ثابت أنكر عليه النابغة قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولـدنا بني العنقاء وابـني محرق ... فأكرم بنـــا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أنت شاعر، ولكنك ما صنعت شيئا، أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فالمتلقي طرف في عملية التواصل، يحق التغيير والتبديل، والمشاركة في تكييف النص.

والتخييل رافد من روافد الفلسفة اليونانية عبر عنه حازم بهذا المصطلح وما هو إلا صورة عن المحاكاة الأرسطية، وهو طريقة فنية في التعبير عن الواقع بطريقة خارجة عن قانون الواقع تتمثل في الدهشة والتعجيب والإغراب.

2 . 4 . مظهر شعرية النص :

لقد سبق حازم القرطاجني الفلاسفة المعاصرين إلى وضع مفهوم **للشعرية**، وهذا ما جعله مرجعا مهما للبلاغة الغربية، ومصدرا من مصادر العلوم العربية، كما هو واضح في تحليله لعملية التواصل التي سبق بها **ياكبسون** بسبع مئة عام **12**، ففيما قال به ياكبسون عن **الوظيفة الشعرية** كان قد قال بوب له حازم بابا خاصا بهذه الوظيفة يقول في حديثه عن الأقاويل الشعرية بأنها" تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي تعتني فيها بإيقاع الحيل، التي هي عمدة في إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه أو التي هي أعوان للعمدة، وتلك الجهات هي: ما يرجع إلى القول نفسه، أو ما يرجع إلى القائل، أو ما يرجع إلى المقول فيه، أو ما يرجع إلى المقول له" **13**، فإذا قابلنا ما أتى به جاكبسون وما كتبه حازم منذ قرون ألفينا ياكبسون ينسخ عن حازم كل عناصر التواصل بما فيها الوظيفة الشعرية، بل إن حازما يقر بأنه تابع في هذا الباب لمن سبقه يقول: " وقد نقل الرواة من ذلك الشيء الكثير لكنه مفرق في الكتب، لو تتبّعه مُتتبع متمكن من الكتب الواقع فيها ذلك لاستخرج منه علما كثيرا موافقا للقوانين التي وضعها البلغاء في هذه الصناعة" **14**، والوظيفة الشعرية عند حازم جاء مفهومها مقاربا للشعرية عند أرسطو، بل تجد في ذلك شبها كبيرا بين الشعريتين يقول حازم: " ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونان ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في صنوف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتراناتها ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطراداتهم وحسن

مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزاد عما قال من الأقاويل الشعرية، .."15 ، لأن العرب مارسوا البلاغة في أعلى درجاتها، لم يجاريهم فيها لسان من الألسنة، فالشعرية واسعة المفهوم عميقة المعاني عند العرب، لاتساع روافدها ومرجعياتها المتنوعة، وتزداد اتساعا من حيث المفهوم إذا ما تعددت واختلفت آليات الكشف عنها كما هي عند حازم الذي ابتكر وسائل فلسفية غربية وعربية ليصل بهذه المزاوجة إلى مظاهر جديدة في البلاغة العربية.

3 . 4 . مظهر التعجيب والإغراب:

يورد حازم القرطاجني مصطلح **التعجيب** ويجعله محل الإثارة والمتعة بين القارئ والباث فهو الذي يخزن المكونات الثقافية للنص، كما يسميه أيضا **الإغراب**، فمدار المتعة النصية كامن فيما لا يألفه المتلقي، فمتى وجد إغرابا حصل له التعجيب أو التعجب، يقول: " والتعجيب في القول المخيل يكون إما من جهة إبداع محاكاة الشيء وتخييله كما كان ذلك في الدمية، ويكون من جهة كون الشيء المحاكى من الأشياء المستغربة والأمور المستطرفة، وإذا وقع التعجيب من الجهتين المذكورتين على أتم ما من شأنه أن يوجد فيهما فتلك الغاية القصوى من التعجيب، وللنفوس إلى ما بلغ هذه الغاية تحريك شديد" 16، والنفوس أقرب ما تكون متعجبة إذا حصلت لها الغرابة في تصور المعاني، فيستولي عليها قانون غير القانون المألوف وتكون في حركة مستمرة وفي بحث مستمر على المعنى، فلا تكاد تظفر به حتى تشرب هذا الجمال الخارق للمعهود، " ... وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا قرنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها "17 ، وأصبحت مطلوبة وهي غير مألوفة، ومن أمثلة الاستغراب قول أبي عمر بن دراج:

وسلافة الأعناب تشعل نارها ... تهدي إلي بيانع العناب

كسر الشاعر في هذا البيت المألوف والذي يكون باحتراق النبات الذي يقارب النار، حيث جعل النار تزيد في نضارة النبات لما قال (يونع) فكانت المحاكاة هنا من باب تحريك النفس لتحقيق التعجيب والغرابة، وحازم القرطاجني يكثر الأمثلة في شرح هذا المظهر البلاغي الذي غالبا ما يكون إلى الفلسفة أقرب منه البلاغة، فيصور كيفية حدوث التعجيب والإغراب للنفوس، ومدى فاعليتها، فقد تجد كما يقول تحريك النفوس كتحريك الدمى إذا ما كان التخييل قد حصل لها فعلا .

4 . 4 . المحاكاة:

جعل القرطاجني المحاكاة رابطا بين المتلقي والمبدع، إذِ المحاكاة عملية تحصل في المتخيلات فتؤثر في النفوس حسب درجاتها التأثيرية 18، وهي في الشعر أمتع وألذ في غيره، فالشعر " تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان من حسن أو قبح حقيقة، أو على غير ما هي عليه تمويها وإيهاما "19 ، فيصبح ما كان قبيحا في الواقع حسنا، وما كان حسنا قبيحا، فيقلب الشاعر الحقيقة ويوهم المتلقي بهذه المحاكاة.

والمحاكاة مذهب فلسفي نقله حازم عن أرسطو (ت:322 ق م)وابن سينا(ت:428هـ)، وقد نقل عن ابن سينا في باب المحاكاة ما نصه: " إن النفوس تنشط وتلتذ بالمحاكاة، فيكون ذلك سببا لأن يقع عندها للأمر فضل موقع، والدليل على فرحهم بالمحاكاة أنهم يسرون لتأمل الصور المنقوشة للحيوانات الكريهة المتقزز منها، ولو شاهدوها أنفسهم لتنطوا عنها، فيكون المفرح ليس نفس تلك الصورة ولا المنقوش بل كونها محاكاة لغيرها، إذا كانت قد اتقنت" 20، وإلا كانت نقلا كما تنقل المرآة الأشياء وتعكسها.

وفي هذا الباب نلفي القرطاجني يتبع أرسطو في تنزيه المحاكاة عن النقل والنسخ الحرفي من الطبيعة، بل المحاكاة آلية أوسع منه مما كانت عند فلاسفة اليونان، والفنان عند أرسطو طبيعة طابعة ومطبوعة، إن نظرت إليه من حيث هو إنسان كان طبيعة مطبوعة، وإن نظرت إليه من حيث هو فنان كان طبيعة طابعة أو خالقة "21، والفنان لا يحاكي الطبيعة وإنما يجملها ويزيد في تقريب ما غاب عن الناظرين من صورها الجميلة حسب روافده الثقافية، 22 ، فالشاعر

في نظر حازم هو من يحسن المحاكاة فيضعها الموضع الذي يؤثر في المتلقين، ويكون حازم القرطاجني من السبّاقين إلى تحليل الأقاويل الشعرية وفق هذه الأنساق الفلسفية اليونانية، وقد ألف عبد الرحمن بدوي كتابا في هذا الباب سماه، حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة، يقول فيه : " إن حازما القرطاجني هو أول من أدخل نظريات أرسطو وتعرض لتطبيقاتها في كتب البلاغة الخالصة " **23**، وبوب لها تحت اسم الوصف، وساق أمثلة من الشعر الأندلسي الذي جاور هذه البيئات الفلسفية، والأثر ساعتئذ بادٍ في المرجعيتين الغربية والعربية، فساق بهذه المظاهر النقد والبلاغة إلى أوسع الأبواب ورسم لها طريق العالمية .

5. فلسفة الصورة الشعرية عند حازم :

يرى حازم القرطاجني بأن الصورة الشعرية لها جماليات قد لا تحصل لصاحب النص بقدر ما تحصل للناقد المتذوق لهذا الجمال، فالناقد الذي ينفذ بذائقته إلى باطن النص فيكشف عن مواطن الإبداع الشعري، فيصل بهذه الملكة النقدية التي لا تحصل إلا بكثرة الممارسة والتردد على النص إلى معان فلسفية خفية.

يركز حازم القراطاجني على النص الشعري باعتباره نصا حمّالا للأوجه التأويلية، ولكونه عميق المعنى، ولأن الصورة الشعرية –كما يراها حازم- متعددة القراءة قابلة للإثراء التحليلي الجمالي، فهي تحمل فائضا من المعاني والدلالات ومخزونا من المعارف المختلفة، فمتى كان النص الشعري أكثر شمولية للمعاني الدقيقة اتسعت مساحة الجمال فيه، وهذا لا يحصل إلا لخاصة الشعراء الذين لطف طبعهم ورقّ ماء إبداعهم، لا من تطفلوا على الشعر يقول: " فإننا نجد الحريص على أن يكون من أهل الأدب المتصرفين في صوغ قافية أو فقرة من أهل زماننا يرى وصمة على نفسه أو يحتاج مع طبعه إلى تعليم معلم، أو تبصير مبصر، فإذا أتى له تأليف كلام مقفى موزون وله الغث القليل منه من الصعوبة بأي وسم، وظن أنه قد سامى الفحول وشاركهم رعونة منه وجهلا من حيث ظن أن كل كلام موزون مقفى شعر" **24**، والشاعر ما تجاوز هذا الفهم النمطي للشعر.

بهذا الطرح الفلسفي نلفي حازما قد وسع مفهوم الشعر وتجاوز ثنائية الوزن والقافية، فالشاعر عنده من ملك براعة التصوير وحذق مواطن الجمال فيها، وهذا المفهوم القرطاجني يتطابق ومفهوم أرسطو لفلسفة الجمال يقول : "... فهو لا يعنى برؤية الناس كما هو الواقع بل كما يجب أن يكونوا عليه "**25** ، فالجمال الشعري عند حازم القرطاجني كائن في جودة العبارة، فهو بحث مستمر في أسرارها من أجل تحسينها وضبط صياغتها، أو هو إدراك لأسرار المتعة الشعرية في النص الأدبي، ومعرفة مواطن الفلسفة فيها،وطرحها كما يجب أن تكون لا كما هي في الواقع، والصورة الشعرية لا يظهر جمالها إلا إذا كان المتلقي خبيرا بتحليل مواطن الجمال .

والصورة الشعرية عند حازم القرطاجني تقوم على تفاعل الحواس، فمتى كان المتلقي ذا حس قوي كان أقرب إلى هذا التفاعل، يقول :" إن المعاني التي تتعلق بإدراك الحس هي التي تدور عليها مقاصد الشعر ، وتكون مذكورة فيه لأنفسها، والمعاني المتعلقة بإدراك الذهن ليس لمقاصد الشعر حولها مدار" **26** ، والشعر في أصله حس لا يعرف إلا بالحس وطبيعته من مادة الحس**27** فلا يعرف الشاعر إلا من هذا الباب على أنه قد أصاب عين المعاني، وهذه الرؤيا الحازمية تفرد بها عن منظري البلاغة قديما، ففي تنظيره هذا بعد فلسفي لا يحصل إلى بالمزاوجة بين الطرح البلاغي العربي والطرح البلاغي الغربي، وللشعر فضل على الأجناس الأدبية، بل له فضل على سائر العلوم الإنسانية لأنه يشتمل على المعاني الكلية والجزئية معا كما يقول أرسطو" ... الشعر أوفر حظا من الفلسفة وأسمى من التاريخ؛ لأن الشعر بالأحرى يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئي "28، فالشعر يحمل الأثر التاريخي في داخله ، فهو الأوسع والأشمل لحمل جملة من المضمرات الثقافية.

6 . خاتمة

والبلاغة عند حازم لها آفاق واسعة تلتقي والمفاهيم العالمية، لأنها لم تقم على الفكر العربي وحده، وإنما قامت على الترابط المعرفي بين العلوم والمعارف والآراء والأفكار، وهي عند حازم القرطاجني صورة تعكس الوقع والمجتمع وتربط بين الميادين والسياقات التي تحدد مفهومها وماهيتها، والبلاغة الحازمية تقوم على ما يجيده المبدع من حسن تخييل وإحكام للأوزان والقوافي ومن براعة في الإغراب والتعجيب، وهذه الآليات الفلسفية التي اعتمدها حازم كانت نتيجة توسعه في علوم الآخر الغربي، فما جمعه عن أرسطو من تنظير للبلاغة فاق به النقاد الذين حاولوا عبر قرون أن يرسموه للبلاغة العربية، ويكون بهذا العمل قد جمع بين المدرستين العربيتين، مدرسة الجاحظ والسكاكي؛ أي بين الطبع البلاغي وفلسفة البلاغة،فلا البلاغة وحدها بطبعها كفيلة بتوسيع المعاني وطريقة حصولها في أذهان الناس، ولا الفلسفة تستطيع إمالة الناس وترغيبهم في تذوق اللغة، وإنما اجتماعها وارتباطها هو الذي يوسع الأفق البلاغي ليشمل مناطق التماس بيت البلاغة العربية والبلاغات الأجنبية، فيكون البحث البلاغي قادرا على استخراج المضمرات الثقافية المتوارية في النصوص الأدبية عامة،ولا يكون هذا إلا بعلوم المنطق والفلسفة والتاريخ والمثاقفة في صورتها الشاملة، ويكون حازم القرطاجني قد مهد للعلماء بابا في التجديد البلاغيوالنقدي، وهذا ما ظهر في كتابات ابن البناء المراكشي- والسجلماسي من خلال كتابيها الروض المريع والمنزع البديع.. فطابقا القرطاجني في طرحه الفلسفي للبلاغة العربية .

الهوامش:

1. أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1952، ص5
2. الجاحظ البيان والتبيين ، ج2، ص 449، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
3. الجاحظ أبو عثمان، البيان والتبيين، ج3، ص 239
4. أبو بكر المرعشي ساجلقي زاده، ترتيب العلوم، محمد إسماعيل السيد أحمد، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1988، ص13.
5. محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ، إفريقيا الشرق، ص 327
6. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي،بيروت، لبنان، ط2، 1982 ص 125
7. عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى القرن الثامن الهجري، ص 41
8. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 18
9. ينظر: عمر إدريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي ، دار الجنادرية للتوزيع والنشر ، السعودية، 2009، ص60
10. محمد بن لحسن بن التجاني ، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، عالم الكتب الحديثة، الأردن، 2007، ص20
11. ينظر: نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، بحوث ودراسات إسلامية، مجلة المعرف، ع54 ، 2008، ص116
12. ينظر: عبد الله الغذامي (الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998، ص17
13. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 346
14. المصدر نفسه، ص 26
15. المصدر نفسه، ص 69
16. المصدر نفسه، ص 127
17. المصدر نفسه، ص 177
18. ينظر: محمد كريم الكواز، النقد والبلاغة، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، لبنان،ط1، 2006 ص 175
19. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 120
20. المصدر نفسه، ص 117
21. وفاء محمد إبراهيم، علم الجمال قضايا تاريخية ومعاصرة، مكتبة غريب، مصر، دط، دت، ص 28
22. ينظر: محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروتن، لبنان، ص 297
23. عبد الرحمن بدوي، حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة، القاهرة، دط، 1961، ص 3

24. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 117
25. أحمد بقار، محاضرات في علم الجمال، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ص3
26. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 177
27. ينظر: جابر عصفور، المفهوم الشعر، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، لبنان، ط1، 2003، ص165
28. أرسطو ، فن الشعر،تر: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافية، مصر، دط، دت، ص26

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد بقار، محاضرات في علم الجمال، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ص3
2. أرسطو ، فن الشعر،تر: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافية، مصر، دط، دت، ص26
3. أبو بكر المرعشيساجلقي زاده، ترتيب العلوم، محمد إسماعيل السيد أحمد، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1988
4. جابر عصفور، المفهوم الشعر، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، لبنان، ط1، 2003
5. الجاحظ أبو عثمان، البيان والتبيين، ج2،تح: عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب اللبناني، بيروت .
6. أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1952
7. وفاء محمد إبراهيم، علم الجمال قضايا تاريخية ومعاصرة، مكتبة غريب، مصر، دط، دت
8. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي،بيروت، لبنان، ط2، 1982
9. محمد بن لحسن بن التجاني ، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، عالم الكتب الحديثة، الأردن، 2007
10. محمد كريم الكواز، النقد والبلاغة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان،ط1، 2006
11. محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة (دراسات وحوارت)، إفريقيا الشرق، المغرب، 2013
12. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، دت.
13. نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، بحوث ودراسات إسلامية، مجلة المعرف، ع54 ، 2008
14. عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى القرن الثامن الهجري، مؤسسة البشير، جامعة القاضي عياض، دط ، دت. مراكش.
15. عمر إدريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي ، دار الجنادرية للتوزيع والنشر ، السعودية، 2009
16. عبد الرحمن بدوي، حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة، القاهرة، دط، 1961
17. عبد الله الغذامي (الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998